تربية الشباب عند العلماء والمفكرين
(الإمام محمّد البشير الإبراهيمي نموذجاً)

Training of Youth near Scholars and Thinkers
(With a Special Reference to Imām Muhammad Bashīr Al Ibrāhīmī)

الدكتورة نورة محمد زواي*

ABSTRACT

The nation's youth are the source of its strength, and the makers of glory, they are men of the future, and to them belongs the leadership of the nation in all its affairs, because youth time is the stage at which human enjoys the full strength, of mind and heart. Young people are contributing an active role in shaping the present and foreseeing future prospects.

Care and upbringing of young people, reformation through of reform of the educational curriculum in line with current developments and requirements, with emphasis on the fundamentals of the Islamic nation, and not merging with others is very importants. That's why reformers are interested in youth, directing and upbringing them with sound education, correcting their distractions and the protection of their morals, in the development of sense of responsibility in serving their communities, and this is the most important duties of scientists and thinkers, the first defense of the nation Fort is beliefs and religion.

Therefore, it is incumbent upon us in this day and era to be aware of our intellectuals, spreading their virtues and perpetuate the memory of them. To highlight this issue the researchwr has choosen Skaykh Muhammad Ibrāhīmī a reknown scientist and scholar of Algeria by highlighting his efforts in the field.

This research paper is about the importance of youth in the advancement of society, and the negative impact of external factors on them; define responsibilities for deviating, and ways to reform, and the means to achieve it, through the efforts of Shaykh Al Ibrāhīmī, and his vision to reform and train youth keeping in view all the causes and factors involved in the proper training of youth.

Keywords: *Youth, Treining, seerah, Reformation, Sollution, Skaykh Muhammad Ibrāhīmī*

* أستاذة مساعدة، قسم الحديث وعلومه، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد

المقدمة

شباب الأمة هم مصدر قوّتها وصنّاع مجدها، وهم رجال المستقبل، وإليهم تؤول قيادة الأمة في جميع شؤونها، ذلك أن زمن الشباب هو المرحلة التي يتمتع فيها الإنسان بكامل قوته فهو مرحلة النضج والعقل والاتزان، فالشباب يسهمون بدور فاعل في تشكيل ملامح الحاضر، واستشراف آفاق المستقبل.

ولأهمية الشباب ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم وأثنى عليهم فقال تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[١]، قال ابن كثير :" وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا، وهم أقبل للحق، وأهدى للسّبيل من الشيوخ"[٢]، وقال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾[٤]، أي أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا القليل من قوم فرعون، من الذرية وهم الشباب[٥]، كما وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على مكانة الشباب وعناية المصطفى ﷺ بهم، ومنها : حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»...وذكر منهم: «شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ»[٦]، وحديث عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ:«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»[٧] وصبوة: "أي ميل إلى الهوى"[٨]....وغيرها كثير .

فالشباب أكثر تأثرا لأنهم في فترة بناء، أي لهم قابلية واستعداد للتغير، لذلك كان أكثر المعتنقين للإسلام عند بعثة النبي ﷺ شباباً، أعدّهم النبي ﷺ وربّاهم على أسس إيمانية أخلاقية تهيئهم لأداء الأمانة التبليغية، فكانوا هم الذين حملوا راية الدعوة إلى الله، فحقّق الله على أيديهم النّصر والعزّة لدينه، وخضعت

---

(١) سورة الكهف، الآية :١٣

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية:١٩٩٩م، ١٤٠/٥

(٣) سورة الأنبياء، الآية :٦٠

(٤) سورة يونس، الآية :٨٣

(٥) تفسير القرآن العظيم، ٢٨٧/٤

(٦) البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبدالله، الجامع الصحيح، باب الصدقة باليمين، رقم الحديث:١٣٥٧، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٩٨٧م، ٥١٧/٢

(٧) ابن حنبل، أحمد بن حنبل، أبو عبدالله الشيباني، المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، رقم الحديث:١٧٤٠٩، ١٥١/٤

(٨) الجزري، المبارك بن محمد، أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، باب الصاد مع الباء، ١١/٣

لهم دولتا فارس والرّوم، ودخلوا الشّام ومصر والشّمال الإفريقي!! تحقّق ذلك كلّه في عهد الخلافة الراشدة، إذ كان جلّ القادة الفاتحين آنذاك شبابا!!، ولهذا اهتم المصلحون بالشباب، بتوجيههم وتربيتهم التربية السّليمة، وتقويم انحرافهم، وحماية أخلاقهم، إعدادا لهم لتحمّل المسئولية في خدمة مجتمعاتهم.

وقد جعلت هذا الموضوع في مقدمة، وثلاثة مباحث وخاتمة، على النّحو التالي:

المبحث الأول: مكانة العلماء ودورهم في نهضة المجتمع.

المبحث الثاني : ترجمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

المبحث الثالث: معالم الرؤية الإصلاحية عند الشيخ البشير الإبراهيمي.

الخاتمة: وفيها أهمّ نتائج البحث والتوصيات.

المبحث الأول: مكانة العلماء ودورهم في نهضة المجتمع

للعلماء فضل كبير على أمّتهم، في حفظ دينها، وشرائعها، وهويّتها، وحضارتها، فهم عقلها الذي يدير شؤونها، وعيونها التي تبصر بها، وسواعدها التي تدافع بها، وأرجلها التي تتقدّم بها، وقلعتها المنيعة التي تحتمي بها، وحصنها القوي الذي تنكسر عند أسواره التحديات، والصّعوبات، وهم مرجع الأمّة تستنير بآراء أهل البصيرة والخبرة منهم، في المحن والشدائد، وفي أوقات اليسر والرّخاء، وتميّز بهم بين الحقّ والباطل، وتتقي بهم من الوقوع في المهلكات، وتتجاوز بهم المصائب والأزمات، وتحلّ بهم أعوص المشكلات، وتستعين بهم على انتهاج طريق الاستقامة والاعتدال، فيخرجونها من كلّ المآزق، عزيزة كريمة، حافظين لها شرفها ومصلحتها[١].

ومكانة العلماء في الإسلام رفيعة، ومنزلتهم مرموقة، ودرجاتهم عالية، وقدرهم عظيم، ومقامهم كريم، وقد منّ الله تعالى عليهم بفضله، وعلّمهم التأويل، وفقّههم في الدّين[٢]، وجعلهم ورثة الأنبياء[٣]، وأمر النّاس بسؤالهم والرّجوع إليهم لمعرفة دينهم، وما يقع لهم في النّوازل والحوادث، وأثنى عليهم في آيات كثيرة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) انظر: الإبراهيمي، الدكتور أحمد طالب، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى:١٩٩٧م، ١٢٦/٢، بتصرف

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب :من يرد الله به خيراً، رقم الحديث:٦٩، ١٢٦/١

(٣) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم الحديث: ٢٦٨٢، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى:١٤٢٠هـ، ٧١/٣، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) سورة الزمر، الآية :٩

وقد ذكر الشيخ السعدي أنّ الفرق بين الذين يعلمون خالقهم وفاطرهم، ويعلمون دينه الذي أنزله، وشرعه الذي أمرنا بالتزامه، وما فيه من الحكم والأسرار، وبين الذين لا يعلمون شيئا من ذلك، إنهم لا يستوون، والفرق بينهم كالفرق بين الليل والنهار، والنور والظلام، والمياه والنيران[(١)].

وقد مدحهم الله تعالى فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[(٢)].

قال ابن مسعود: "مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم(دَرَجَاتٍ) أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به"[(٣)].

ونظرا للمنزلة العظيمة التي حظي بها العلماء في الإسلام، جعل الله تعالى طاعتهم، طاعة لله وطاعة لرسوله ﷺ فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[(٤)]، وأولي الأمر هنا هم الأمراء و العلماء كما قال المفسرون[(٥)].كما أمرنا بالرجوع إليهم وسؤالهم إذا حَزَّ بنا أمر، أو فاجأتنا حادثة، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٦)].

لذلك كان لزاما علينا في هذا العصر التعريف بعلمائنا، ونشر فضائلهم، وإحياء ذكراهم، لتقتدي بهم الأجيال الصاعدة، وتتأسى بهم في الخير والصّلاح، وتحذو حذوهم في خدمة أمّتها، وتحقيق الأمن والسّلام، والرقي بها في سلّم الحضارة، لأنّ هذه الأمّة لا يستقيم حالها، إلاّ بما صلح به أوّلها.

ومن هؤلاء العلماء الأعلام الأفذاذ، الذين كان لهم دور كبير في الدّفاع عن الأمّة، وإصلاح شأنها، العلامة الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وإني باختياري لهذا العلم الرائد، والعبقري النّحرير، وجدت نفسي أمام بحر لاساحل له، فهذا الرّجل العظيم عاش عصره تأثرا و تأثيرا، فكانت حياته زاخرة بالعطاء، حافلة بالأعمال الجليلة خدمة لأمّته ودينه....لذلك سأتناول في هذا البحث ملامح الرؤية الإصلاحية للنّهوض بالمجتمع عند الشيخ الإبراهيمي بوصفه عالما من علماء الأمة الإسلامية، شغل موضوع إصلاح الشّباب حيزا كبيرا من اهتماماته.

---

(١) انظر السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق:عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى:١٤٢٠هـ، ٧٢٠/١

(٢) سورة المجادلة، الآية :١١

(٣) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين، الجامع لأحكام القران، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ، ٢٩٩/١٧

(٤) سورة النساء، الآية :٥٩

(٥) تفسير القرآن العظيم، ٣٤٥/٢

(٦) سورة الأنبياء، الآية :٧

المبحث الثاني :ترجمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

اسمه ونسبه

هو الشيخ محمّد البشير بن محمّد السّعدي بن عمر بن محمّد السّعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، من قبيلة عربية تعرف بـ "أولاد إبراهم"يرجع نسبها إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب، وقد ولد يوم الخميس الرابع عشر من شوال عام ست وثلاث مائة وألف هجرية الموافق للثالث عشر جوان ١٨٨٩ ميلادية بقرية "رأس الوادي " في ضاحية مدينة سطيف بالشرق الجزائري، وتوفي رحمه الله – وهو حبيس الإقامة الجبرية –يوم الخميس ٢٠ مايو ١٩٦٥م [(١)] .

نشأته وتعليمه

نشأ الشيخ الإبراهيمي بين أحضان أسرة علمية، كان العلم ميراثها جيلا بعد جيل، ونبغ منها علماء كثيرون، وتعهده بالتربية والتعليم، أصغر أعمامه الشيخ محمد المكّي الإبراهيمي الذي كان نابغة في علوم اللسان العربي في الجزائر، ومرجع طلاب العلم في عصره [(٢)]، وقد ظهرت علامات النبوغ على الشيخ الإبراهيمي منذ أن كان في التاسعة من عمره، حيث أتمّ حفظ القرآن الكريم وأتقنه، كما حفظ ألفيات كثيرة، في علوم شتى، منها: ألفية ابن مالك وابن معطي في النحو والصرف، وألفيتي العراقي في السير والأثر، كما حفظ المعلقات، والمفضليات، وأشعار المتنبي، والكثير من شعر الرضي وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وأبي نواس وغيرهم، وكان قوي الذاكرة، واسع الحفظ، حفظ كتبا جمة، منها: جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، وكتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وإصلاح المنطق ليعقوب السِّكِّيت، والكامل في الأدب، والبيان، وأدب الكاتب، وبعد موت عمّه، جلس في كرسي التدريس، يعلّم الطلاب، وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، واستمرّ على ذلك حتى بلغ عمره عشرين سنة، ثمّ هاجر متخفيا إلى المدينة المنورة سنة ١٩١١م، ولحق بوالده الذي سبقه بالهجرة إليها سنة ١٩٠٨م فرارا من ظلم الاحتلال الفرنسي، وفي طريق هجرته للمدينة مرّ بالقاهرة، فبقي فيها ثلاثة أشهر، متنقلا بين حلقات العلم في الأزهر، وتعرّف على أشهر العلماء فيه.

وحين وصل إلى المدينة النبوية، رافق الشيخين الفاضلين:العزيز الوزير التونسي، وحسين

---

(١) انظر ترجمته في مقالة الإبراهيمي تحت عنوان: «أنا» «مجلة مجمع اللغة العربية»، نقلا عن آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وترتيب :نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى:١٩٩٧م، ١٦٣/٥ -١٦٥

(٢) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١٦٤/٥

أحمد الفيض أبادي الهندي ونهل من علمهما في الحديث رواية ودراية، وأخذ علم التفسير من الشيخ إبراهيم الأسكوبي، ثم ولى وجهه مع والده شطر دمشق في سنة ١٩١٧م، حيث قررت الحكومة العثمانية ترحيل سكان المدينة إلى دمشق بسبب الحرب، وما هي إلاّ أيّام قلائل بعد وصوله دمشق، حتى جاءته العروض من جهات عديدة للتدريس في المدارس الأهلية، وإلقاء الدروس في رمضان بالجامع الأموي.

وبعد أن قامت حكومة الاستقلال العربي، ورحل الأتراك عن دمشق، وجهت له دعوى للتدريس بالمدرسة السلطانية الأولى، وباشر عمله أستاذًا للأدب العربي، وتاريخ اللغة وعلومها، وحظي طلاب العلم بفرصة التتلمذ على يديه، وتخرج منهم رواد في العلم، وطلائع العاملين في حقل العروبة.

وبعد أن لمع اسمه أراده الأمير فيصل بن الحسين أن يتولى إدارة المعارف بالمدينة المنورة، فعرض عليه الأمر، لكنّه رفض ذلك، واتخذ قراره بالعودة إلى الجزائر سنة ١٩٢٠م، ونزل بمدينة سطيف، وأسّس فيها مسجدا ومدرسة، ليكونا النواة الأولى في عمله الاصلاحي [١].

مؤلفاته

عاش الشيخ الإبراهيمي حياته تأثرا وتأثيرا؛يحمل همّ الجزائر وما تعانيه من ظلم الاحتلال الفرنسي الغاشم، أينما حلّ وارتحل، ووجد أنّ السبيل الأمثل للتحرّر من الاحتلال الماكر، وطرده من البلاد، هو إعداد الرجال القادرين على حفظ الهوية العربية الإسلامية، التي بذلت فرنسا كلّ جهدها لمحوها، وسعت ولازالت تسعى إلى مسخها، فكان رحمه الله، يعمل ليلا ونهارا في ملاحقة الاحتلال، الذي استعبد شعبه، وسلب حريته، وصادر حقوقه، ويفضح خططه الرامية لجعل الجزائر فرنسية، قلبا وقالبا، ونظرا لهذا الجهد الكبير، لم يتسع وقته للتأليف والكتابة، فكان يواسي نفسه بأنّه ألّف للشعب رجالا، يحملون فكرا سليما، ويفهمون الدّين فهما صحيحا، ويتصفون بالعزّة والشّجاعة والإباء، يدافعون عن شعبهم ويسعون بكلّ ما أوتوا من قوة، لتحريره من الاحتلال، واسترجاع حقوقه المهضومة، وهذه الأعمال الجليلة تقرّب صاحبها من رضى ربّه، ورضى شعبه، ومع انشغالاته الكثيرة، فقد أثرى المكتبة بموضوعات مفيدة، وكتب قيمة، منها: عيون البصائر، وكاهنة الأوراس، وأسرار الضمائر في العربية، وقد ضاع أغلبها، وجمع شتاتها من تلامذته، ونشرت مقالات في المجلات العربية[٢]، هذا هو الشيخ الإبراهيمي الذي كان قمّة من القمم الشامخة في الكتابة والعلم والخلق والجهاد والتضحية [٣].

---

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١٦٦/٥

(٢) انظر محمَّد المهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى:١٩٨٨م، ص:٦٤-٦٨

(٣) آثار الشيخ الإبراهيمي، ٢٨٩/٥

مصادر ثقافته

أولا: الاستعداد الفطري فقد وهبه الله تعالى ذاكرة قوية خارقة، لا تدع شاردة ولا واردة، إلا وقيدتها، تصطاد المعاني ولو كانت بعيدة، فكان آية من آيات الله في الحفظ، وأعجوبة من عجائب زمانه[١].

ثانيا: نشأته في بيت علم حيث يقول الإبراهيمي، حيث نشأ في بيت توارث العلم قرونا عديدة، وظهر فيهم علماء أجلاء، اهتمّوا بعلوم اللغة العربية، وبذلوا قصارى جهدهم في تعليمها للأجيال النّاشئة، ونشرها في ربوع البلاد [٢].

ثالثا: شيوخه

من أبرز العلماء الذين أثروا على الشيخ الإبراهيمي علميا وفكريا

الشيخ محمد المكي الإبراهيمي

كان الشيخ محمد المكي شقيق والده الأصغر، مرجعا لطلاب العلم في عصره، نابغة في النحو والصرف والفقه، مهتما بالشيخ الإبراهيمي غاية الاهتمام، فكان معلّمه القدير، ومربّيه الفاضل الذي أثّر فيه تأثيرا كبيرا، حتى ظهر ذلك في حياة الشيخ العلمية، وتوجهاته الفكرية، وقد كان الشيخ الإبراهيمي ملازما له، إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٩٠٣م.

العلماء الذين تلقى عنهم العلم بالقاهرة

رحل الشيخ الإبراهيمي إلى المشرق، وبقي في القاهرة ما يقارب ثلاثة أشهر، متنقلا بين مجالس العلم التي تعقد فيها وتعرف خلالها على أشهر علماء الأزهر، ومنهم :

١- الشيخ يوسف الدجوي في الأزهر، وكان عالما في البلاغة.

٢- الشيخ محمد بخيت، وكان يدرس في الرواق العباسي، الجامع الصحيح للإمام البخاري.

٣- الشيخ سعيد الموجي، وكان يدرس بجامع الفاكهاني، موطأ الإمام مالك بن أنس.

٤- الشيخ رشيد رضا، وقد لقيه في دار الدعوة والإرشاد [٣].

العلماء الذين أخذ عنهم العلم بالمدينة المنورة

الشيخ الوزير التونسي

كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، شديد الرغبة في الاستزادة من العلم، وله نفس تواقة إلى المعرفة، حريصة على مصاحبة العلماء المحققين، لذا لما أقام رحله في المدينة النبوية، وتعرّف على الشيخ

---

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ٢٧٤/٥

(٢) المرجع السابق ٢٧٣/٥

(٣) المرجع السابق، ٢٩٩/٥

الوزيرالتونسي، وتبيّنت له مكانة الشيخ بين العلماء، وما منّ الله عليه من دقائق علم الحديث رواية ودراية، وما فتح به عليه من علم التفسير، أحسّ الإبراهيمي بأنّه قد وجد ضالته، ومراده الذي يبحث عنه، فلزمه، وأخذ عنه الموطأ دراية، وفقه الإمام مالك بن أنس، وكتاب التوضيح لابن هشام، وبقية العلوم الإسلامية[١].

الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي

ليس من السّهل أن ينال عالم رضى الشيخ الإبراهيمي، وينال إعجابه، إلاّ إذا كان محقّقا بارعا، يحمل علما صحيحا نافعا، متميّزا في فهمه وتفكيره، مستقيم اللسان، فصيح الكلام، بليغ المعاني، واسع الأفق، يقرّب البعيد، ويوضّح الغامض، ويغوص في أعماق العلوم، فيستخرج كنوزها، وينير بها عقول النّاس، ويهديهم إلى ما فيه خيرهم ورشادهم، لذلك كان صعبا جدا أن يقتنع الشيخ الإبراهيمي بالعالم قبل أن يختبره، ويعرف ما عنده، وقد ضلّ يطوف بمجالس العلم في الحرم النّبوي، فلم يطمئن قلبه لمن رآهم، ولم يكونوا في نظره من أهل التحقيق والنظر، فنأت نفسه عنهم، وعزفت عن مجالستهم، تتطلّع إلى مشايخ قرأ عن أوصافهم، في كتب التراجم والطبقات، حتى ظنّ أن تلك الصورة التي ارتستمت في ذهنه لم تتحقّق، منذ أزمان بعيدة، حتى لقي شيخين عزّ الزمان أن يجود بمثلهما، وهما: الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، وكان لا يرى لهما نظيرا في زمانه، وبذلك تحولت الأمنية إلى حقيقة، وأدرك الإبراهيمي بغيته بلقائهما، وقد أعجب بهما غاية الإعجاب، وأثنى عليهما ثناء عظيما، وإذا أثنى الإبراهيمي على شخص، فقد بلغ الثريا، وحسبك بثنائه من ثناء، لذلك لزمهما، ونهل من علمها الغزير، وخاصة في علوم الحديث، وفقه السنّة، فقد كانا رحمهما الله تعالى من أعاجيب الدهر، في الفهم، والتحقيق، وسعة الأفق، ودقة الملاحظة، واستنباط الحكم والأسرار[٢].

الشيخ إبراهيم الأسكوبي

ومن المشايخ الذين أعجب بهم الشيخ الإبراهيمي، ونالوا رضاه، الشيخ الأسكوبي الذي أخذ عنه علم التفسير، أيام كان في المدينة النّبوية، وكان الشيخ الأسكوبي عالما بارعا في علم التفسير، يشار إليه فيه بالبنان، وأمّا في الورع والتصاون، فقد كان متميّزا، لايدانيه أحد [٣].

المبحث الثالث: معالم الرؤية الإصلاحية عند الشيخ البشير الإبراهيمي

أوّلا: أسباب انحراف الشباب

يرى الشيخ البشير الإبراهيمي أنَّ الافتتان بالحضارة الغربية باسم التقدم المزعوم، هو مصدر

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ٢٧٥/٥

(٢) المرجع السابق، ٢٧٥/٥

(٣) المرجع السابق، ٢٧٥/٥

انحراف الشباب، وبعدهم عن الرّوح الاسلامية، لذلك كان يحذر من الإفراط في هذا التأثر، لأنه سيؤدي إلى ذوبان شخصية الأمّة في غيرها، ومن ثمّ القضاء عليها، واعتبر الشباب على مرّ الدّهور والأزمان، وفي كل المجتمعات، هم الدّم الذي يجدّد للأمّة حياتها، ويحمل خصائصها الوراثية، وإذا فسد هذه الدّم لأيّ سبب من الأسباب، أو طرأ على خصائصها الوراثية سوء، انعكست آثاره السيئة على الشّباب، وظهر التهوّر مكان التطوّر، وجرّ على أمّته الويلات تلو الويلات، وجعلها تابعة لغيرها، وحوّلها من أستاذة تتربع على عرش السيادة، إلى خادمة مستعبدة، فاقدة لهويتها، تقترب يوما بعد يوم من حتفها، ومن العجب أن يكون الشّباب هو حياة الأمّة وموتها [١].

ومع ما يراه الشيخ الإبراهيمي من أهمية الشباب، ودوره في تحمّل المسؤولية، إلا أنّه لا يلقي كامل المسؤولية على عاتق الشباب، بل يرى أنّ المسؤول عمّا أصاب الشباب، وأفقده دوره الإيجابي في نهضة أمّته، هم الآباء، والحكّام، والقادة بل إنّه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيعتبر أنّ الجيل السابق يتحمّل مسؤوليته، فيما أصاب الجيل اللاحق من اختلال في الموازين، وانحلال في الأخلاق، وتأخّر عن ركب الحضارة [٢].

لذلك يرى الشّيخ الإبراهيمي أنّ الحلّ في نظره، لإنقاذ الشّباب من براثن الفساد والإنحراف هو أن ينهض علماء الأمّة الإسلامية والمصلحون فيها، بواجبهم نحو الشباب، فيتداركون روحه وعقله وهواه، حتى يعود إليها، ويقوم بدوره الريادي[٣].

ثانيا: وسائل الإصلاح في نظر الشيخ الإبراهيمي

لقد جاهد الشيخ البشير الإبراهيمي جهادا كبيرا، من أجل أن تعود الأمّة إلى دينها، لتستردّ مكانتها الريادية، وتتقدّم في سلّم الرقيّ والسّعادة، وكانت وسائل الإصلاح في نظره واضحة، وتتمثّل فيما يلي:

التمسّك بالكتاب والسنّة، والتأسّي بالسّلف الصّالح

يتعجّب الشيخ الإبراهيمي من أمّة تعاني من التفرّق والتناحر، والتاخّر، وتكالب الأعداء عليها، وسخرية الزمان، وتشقى، ومعها القرآن الكريم الذي أسعد سلفها الصّالح، وجعله ينعم برغد العيش، والأمن والسّلام، ووحّد الأوّلين على التقوى، وجمع بينهم، حين تدبّروا معاني القرآن، واتّبعوا أوامره، ففازوا بالعلم والعمل، وليس من حلّ لهذه الأمّة إلا بعودتها إلى معين الدين الصافي، تنهل منه، وتعيش في ربوع القرآن الكريم، كي تنهض من كبوتها، وتستعيد عافيتها، وتتخلّص من إيمانها المعلول، والاتباع المدخول، وتتحرّر من الأفهام السّقيمة، والتأويلات الباطلة، والأعمال البشعة، لأنّ الإنسان يجني عواقب ما يزرع،

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ٢٥/٤، بتصرف
(٢) المرجع السابق، ٢٥/٤
(٣) المرجع السابق، ٢٥/٤

ولن يبزغ الفجر على هذه الأمّة، حتى تؤمن إيمانا صحيحا، وتعمل الصّالحات[١].

فالشيخ الإبراهيمي يدعو الأمّة إلى الاهتداء بالقرآن الكريم، لأنّه المرجع الوحيد الذي يكفل لها سعادتها، وينقذها من التيه والضياع، ويحفظ لها كرامتها وعزّتها، ويحقّق لها أمانيها، وهذا ما كان عليه الأوّلون من هذه الأمّة، فسادوا، وعاشوا حياة سعيدة في ظلال القرآن الكريم، كما أنّه يرى أنّ من التمسّك بالقرآن الكريم، التمسّك بسنّة النّبي ﷺ، التي هي مفتاح فهم كتاب الله تعالى، وقد كان ﷺ خلقه القرآن، يأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، ولا يتعدّى حدوده، ويلتزم بآدابه وأخلاقه، فكان خلقه القرآن، ربّى عليه نفسه، وربّى عليه أصحابه رضوان الله عليهم، ثم شهد لهذه الأمّة بخير شهادة، فاعتبر الذين لقوه ورأوه وآمنوا به أصحابه، والذين آمنوا به، ولم يروه إخوانه[٢]، ويالها من شهادة تجعل صاحبها يتيه شرفا وفخرا بها، لأنّها جاءت على لسان خاتم النّبيّين.

ويدعو الشيخ الإبراهيمي إلى التركيز على القرآن الكريم، لأنّه كتاب معصوم، وهو الأنفع والأجدر في الاقتداء بسيرة الرّسول ﷺ، من كتب السير التي أسهبت في ذكر أمور لا يجب فيها الاقتداء، وأهملت جوانب كثيرة لها أثر كبير في الحثّ على الخيرات، والصالحات، وحسن الصّلة بالله تعالى، والتحلّي بالصّبر، والشّجاعة، وحرصه ﷺ على تربية أصحابه، على تقوى الله تعالى، والمآخاة والتناصح،

ولا يغفل الشيخ الإبراهيمي عن أهمية الاقتداء بالعلماء الربّانيين، الذين هم أنوار الهدى، ونجوم السّماء التي تمشي على الأرض، يجدّدون للأمّة دينها، كلّما حادت عن جادة الصواب، ومالت عن الحقّ والرّشاد، ويدعو إلى إحياء ذكراهم، وأخذ العبر منهم، وجعلها مصابيح عند الشدائد، والليالي الحالكة، ويشارك المثقفون العلماء في نهضة الأمّة، لأنّهم جميعا يعدّون الميزان المحكم، في حفظ توازن الأمّة، والسّهر على مراقبة الحدود من الانتهاك، وحماية الأخلاق من الانحراف والفساد، والبعد عن المغريات والمغويات[٣]، فيقتدي بهم العامي، ويخشاهم المستبد الغشوم، فلا تمتدّ يده إلى العبث والمجون[٤].

لذلك كان لزاما على العلماء والمثقفين أن يخالطوا النّاس، ويتحببوا إليهم، ويعيشوا بينهم، ويحتكوا بهم، ويطلعوا على أحوالهم، ويشاركوهم في همومهم، ليكسبوا ثقتهم، التي هي رأس مالهم، في عملية إصلاح المجتمع، ومن ثمّة يقومون بنصحهم، وإرشادهم، وتوجيههم، لفعل الخير، واجتناب الشرّ، ويعلمونهم العلم النّافع، ويحثّونهم على العمل، وترك الكسل، ويحاربون الجهل فيهم والأمية، ويصححون لهم فهمهم لدينهم، ونظرتهم للحياة، وينظفون لهم أفكارهم من الخرافات والأساطير، ويؤاخون بينهم،

---

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١/١٥٧-١٥٨، بتصرف

(٢) المرجع السابق، ٤/١٤٥

(٣) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ٥/١٩٣

(٤) المرجع السابق، ١/١٦

ويوحدون صفوفهم، ويصلون بين العامة والخاصة منهم، ليعيشوا إخوة متحابين، متراحمين، محسنين إلى الخلق أجمعين(١).

الاهتمام بالعلم

يعتبر الشيخ الإبراهيمي العلم أساس حياة الأمم، ومن أهمّ أسباب الرقي والتحضّر، ويأسف على أمّة القرآن الكريم، أن تكون متأخرة عن ركب الحضارة، ويحثّها على المبادرة بلزوم العلم، لأنّه أساس التقدّم والازدهار، لأنّ الأمم الحية في عصرنا، لم تصل إلى ما وصلت إليه من قوة، ورقي، إلا بالعلم التطبيقي، الذي أساسه القراءة والكتابة(٢).

لذلك لا بدّ من محاربة الجهل والأميّة، بتشييد المدارس، ونشر العلم، حتى يتمكّن الطلاب من التعلم، وتقديم الخدمات لأمّتهم، وهذا هو الطريق الصحيح، من تركه ضلّ، ومن طلب غيره زلّ(٣).

الاستفادة من العلوم العصرية

لا يرى الشيخ الإبراهيمي حرجا في الاستفادة من العلوم العصرية، لأنّها عبارة عن إسهامات إنسانية، يسلّمها جيل إلى جيل، فيزيد فيها وينقص، بحسب الوسائل المتوفرة لديه، والعوامل المؤثرة فيه(٤).

الدعوة إلى مكارم الأخلاق

يرى الشيخ الإبراهيمي أنّ مما يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، ما تتمتع به من أخلاق فاضلة، لذلك ينبغي التمسك بها، والحرص عليها، خاصة في هذا العصر الذي انتشرت فيه الرذائل، وعمّ فيه الفساد، وأبيحت المحرّمات، وفسدت فيه الأذواق، وانقلبت فيه الموازين والقيم، ورفعت فيه معاول هدم الأخلاق، وقدّمت فيه الرذائل على الفضائل (٥).

ولكي نواجه هذه الحملة الشرسة على الأخلاق، يدعو الشيخ الإبراهيمي إلى تكثيف الجهود، والاعتناء الشديد بالبيت، ومضاعفة أعماله في تربية أفراده، لأننا نمتلك ميراثا أخلاقيا قيما، هو كفيل بأن يكون الدرع الواقي، والحصن المنيع، للأسرة من الانحراف، والقضاء على هذه الجراثيم الأخلاقية التي أرادت أن تفتك بمجتماعتنا الإسلامية، وبتظافر الجهود، والتزام النهج الصحيح، يتحقق النّصر بإذن الله تعالى (٦).

ويعتبر العمل الجاد في البيت والمدرسة، هو الجهاد الأكبر، ومفتاح النّصر، ولا يرى للمصلحين

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ٢/٢٩

(٢) المرجع السابق، ١/٢٠٣

(٣) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١/٢٥٨

(٤) انظر المرجع السابق، ١/٣٧٤

(٥) انظر المرجع السابق، ١/٥٢

(٦) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١/٥٢-٥٣

في العالم الإسلامي عذرا، في التخلف عن العمل في الميدانين، لأنّ المعركة في حقيقتها، هي معركة بين الإيمان والكفر(١).

فهذه هي معالم المشروع الاصلاحي للشيخ البشير الإبراهيمي طيب الله ثراه .

الخاتمة

أهمّ نتائج البحث

١- العودة إلى الاهتداء بنور القرآن وسنة المصطفى ﷺ هي أساس صلاح المجتمع.

٢- مشاركة الشباب في خدمة المجتمع مرتبطة بتربيته وتعزيز انتمائه إلى وطنه.

٣- تكامل دور البيت والمدرسة في حماية الأخلاق الفاضلة وبثها في المجتمع.

٤- ضرورة الاستفادة من الحضارة الغربية في مجال التعليم وتطوير وسائله.

٥- حماية الأسرة المسلمة وتحصينها من التيارات الهدامة، أساس سلامة المجتمع من الآفات.

التوصيات

١- الاستفادة من جهود العلماء والمصلحبن في إصلاح المجتمع.

٢- إصلاح مناهج التعليم بما يواكب مستجدات العصر ومتطلباته مع الحرص على ثوابت الأمة الإسلامية وعدم إدغامها في غيرها.

٣- منح الثقة للشباب بإشراكه في المهام الكبرى تأسيا برسولنا ﷺ.

٤- الالتفات إلى تفعيل دور المرأة المسلمة في خدمة الجتمع ,بمراجعة ظروف عملها وتحسينها، كنصاب ساعات العمل بما يناسب مسئولياتها، وأماكن العمل..

وصلى الله على نبيّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَم تسليما.

❁ ❁ ❁

---

(١) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ١٤/ ٢٧